

الأدب العربي

ما هو ، وما تاريخه ، وكيف كان تدوينهما ؟

المستاذ السباعي يورسي

أستاذ تاريخ الأدب بكلية دار العلوم

ما هو ، وما تاريخه ؟

إنه لحرى بنا قبل التعرض للتعريف بالأدب أن نعرض لكلمة الأدب
نعالجها مفردة غير منسوبة لشيء ، مما لجة تسارها منذ الطفولة إلى أن اكتمل
معناها وصار إلى الحد الذي نعرفه لها الآن ، والذي عنده وقعت نسبتها إلى
اللغة حتى إذا ما تعرضنا لمعنى الأدب نكشف عنه ونبين الغرض منه كان
قولنا واقعاً على أساس وألفينا ذلك المعنى سهل المأخذ على آذاننا وطيد
الاستقرار في أذهاننا .

ولعل أول معنى عرف لكلمة الأدب هو وقوعها مصدراً لأدب يأدب
اللازم من باب ضرب بمعنى صنع طعاماً يحتفل به ويدعو إليه والاسم من ذلك
المأدبة : على أن هذا الفعل استخدم من الباب نفسه - ويغلب أن يكون ذلك
في الوقت عينه - بمعنى دعا إلى مأدبته ومن ذلك قول طرفة بن العبد ويستشهد
به على المعنيين

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر
يقول نحن في المشتاة أى الجذب ندعو الدعوة العامة وهى الجفلى فلا ترى
الأدب فينا أى صانع المأدبة أو الداعى إليها ينتقر فى دعوته أى يختص بها فريقاً
دون غيره ، والنقرى ضد الجفلى .

مكنت الكلمة على هذا المعنى بشعبية السابقتين العصر الجاهلي كله تقريباً ،
حتى إذا ما كان قبيل الإسلام تخطت متعددة ومن باب ضرب أيضاً إلى معنى
آخر هو التهذيب والرياضة فقبل أدبه يادبه بمعنى هذبه وثقفه . كما قيل أدبه
بالتشديد على سبيل المبالغة والتكثير بمعنى علمه وبمعنى عافيه على إساءة ؛ لأن
العقاب مما يحقق معنى الآدب على هذا الوجه ، وهو كل رياضة محمودة يخرج
بها الانسان في فضيلة من الفضائل ، ومن ذلك قول عتبة بن ربيعة لابنته هند
وهو يصف لها أبل سيفيان بن حرب بعلا على غير تسمية ، يؤدب أهله ولا
يؤدبون ، ، وقولها في الجواب عن ذلك « إني لأخلق هذا لواقفة وإنى له
لمواقفة وإنى لأخذته بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي ، ،

ولما أن جاء الإسلام بتعاليمه الداعية إلى مكارم الأخلاق انتشر هذا
المعنى وشاع ، وأكثر الناس استعماله أيما إكثار وبخاصة بعد أن قال النبي
صلى الله عليه وسلم « أدبني ربى فأحسن تأديبى ، . ثم توسعوا في كلمة الآدب
فأطلقوها على كل ماله أثر في التهذيب وحضوا لذلك على التأديب بالمأثور
ولا سيما الشعر لما فيه من الدعوة إلى المكارم والتسابق إلى المحامد كما قال عمر
ابن الخطاب لابنه رضى الله عنهما « يا بنى انسب نفسك تصل رحمك واحفظ
حامين الشعر يحسن أدبك ، وكما قال معاوية « اجعلوا الشعر أكثر همكم
وأكثر آدابكم فإن فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم . وكما قال عبد الملك
ابن مروان لمعلم ولده ، « أدبهم برواية شعر الأعشى ، فانه قاتله الله ما كان
أعذب بحرّه وأصلب صخره ، . ولقد ازدادوا توسعاً في معنى تلك الكلمة
حتى جعلوا الآدب يشمل ناحية الرذيلة كما شمل الفضيلة لأن في تناوله الأولى
بالترغيب عنها والتبغيض فيها حضاً غير مباشر على الترغيب في الثانية والتخبب
إليها ، ثم بالغوا في هذا التوسع حتى شمل الآدب بالمأثور جميعاً ، وبهذا انتقلت
كلمة الآدب إلى معنى الظرف في الخلق وحسن التناول للقول ، كما انتقلت كلمة

التأديب إلى العمل في سبيل ذلك ، وطاوعتها كلمة التأديب حتى قيل أدبت فلانا فتأديب ومن ثم نشأ الفعل أدب يأديب من باب كرم فعل السجاياء والظلمع وأطلقت كلمة الأديب على ما حسن أدبه وبدأ ظرفه كما قال سالم بن وابصة من قصيدة يحض فيها على مكارم الأخلاق .

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديباً ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زنة فيمكن أنب محتالاً لزلته عذراً
ومن هنا بدأت كلمة الأدب تتحرف عن معناها اللغوي إلى هذا المعنى الاصطلاحي .

ولما أخذ القوم في مزاولة بعض العلوم من دينية ولسانية آخر العهد الأموي ، انحازت هذه الكلمة إلى حذق علوم اللغة لما لها من الأثر في تقويم اللسان واستكمال أداة البيان ، ثم كان تقدم العلوم وارتقاء المعارف أيام الدولة العباسية ، بما حدث من تقسيم وتفصيل ، واستجد من ترجمة ونقل ، فجعل التأديب مهنة تصدى لها المؤدبون وتصدرهم فيها الأئمة من الرواة والعلماء وقصر الأدب على مآثور اللغة من شعر ونثر ، وعكف الناس على دراسته بهذا المعنى حتى وضعت له كتب خاصة عرفت بكتب الأدب كما عرف غيرها بكتب الدين مثلاً ، وجارت كلمة الأدب في ذلك كلمة الأديب فوسم بها كل من حذق الأدب على هذا الوجه . وعرف من سائر العلوم ما هو للأدب وسيلة أو للأدب به علاقة وله منه فائدة ، إذ لا يجمل بالأديب أن يكون من غير الأدب عاطلاً ، فإن الأدب ثقافة خاصة لها حاجة وبها افتقار إلى أن ترتكز على ثقافة عامة بدونها يقل بهاء الأدب وتذهب حلاه ، ولكنهم مع هذا لم يتجاوزوا كثيراً مآثور اللغة في رواياته المنبثة على أيدي الرواة ، وفي شرحه والافادة منه على أيدي الأدباء ، فبقيت كتب الأدب ما بين كتب رواية تخلص للمآثور مجردة ، إلى كتب رواية تبحث في معناه إجمالاً أو تفصيلاً على

ما قد يشوب هذه الأخيرة من أبحاث لغوية أو نحوية وصرفية تخرجها عن الناحية الأدبية الصرفة وتجعلها بالانتساب إلى الناحية العلمية أخرى .

هذا استمرت الأبحاث جامدة عند معنى الأدب دون تاريخه الذي لا يتحقق بغير التحليل والاستنباط ، وتتبع أطوار المأثور بأنواعه ضعة وارتفاعا ، وتلبس العلل لذلك والأسباب ، والانكباب على دراسة البينات من عامة وخاصة لمعرفة ما أنتجت في ذلك التاريخ من آثار ، إذ تاريخ الأدب وهو حياته يعترى ما يعترى حياة الأمم في كل مظاهر التاريخ السياسي العام ، نعم إن المتقدمين في ذلك العهد العباسي وبعده قدعوا لجوا أبحاثا هي من تاريخ الأدب في الصميم ، كالموازنة بين شيء في عهد أو بين شاعر وآخر جملة أو في قصيدتين ، وكالكلام فيما طرأ على اللغة بالاختلاط ، إلا أن ذلك لم يتناول في مجموعه كل ما لحياة الأدب من تاريخ ، كما لم ينسجم مرتبا في سلك النظام الذي ينبغي أن تكون عليه تلك الأبحاث ، فلم يزل تاريخ الأدب على تلك الحال من النقص في بعض وجوهه ، وانتثاره على غير شخصية قائمة في بطون الكتب ، إلى أن هب المستشرقون يضعون أسسه ويرفعون قواعده ، وتوافروا على أبحاثه يثبتون أصولها ويفرعون الكثير من فروعها إلى أن أوصلوه إلى صورة متميزة قائمة ، فإذا هو كما نراه الآن علم ذو نظام وترتيب وتقسيم وتبويب ، وكان لهم في ذلك طريقان ، إما دراسته موضوعا موضوعا يتناولون بكل موضوع من عصر إلى عصر حتى يستتم أطواره ويستكمل ألوانه وهذا على غنائه قليل ، وإما دراسته عصرا عصرا يتناولون في كل عصر موضوعات الأدب واحدا واحدا كما هي الحال في التاريخ السياسي العام وهذا هو المتبع والكثير .

فعل المستشرقون ذلك وحينما أنشئت دار العلوم على نظارة على مبارك باشا للجواف المصرية إذ ذاك كي تنهض باللغة العربية في بلد انتهت إليه زعامة الناطقين بالضاد ، كان لزاما أن يكون الأدب وتاريخه من أول ما يعنى

بدراسته في هذا العهد الجديد وفعلًا كان فمهذّب بذلك أول الأمر إلى طائفة من الأدباء لعل أكثرهم غناء كما هو بلا شك أبقاهم أثرا المرحوم الشيخ تحفة فتح الله صاحب المواهب الفتحية باكورة ما ألف بالعربية في هذا الباب ، لكن الشيخ طيب الله ثراه نظر إلى الأدب كأنه فن لا يستند إلى علم أو كأن دراسته بعيدة عن تاريخه كافية في تكوين الأديب ، فنهج في مواهبه نهجا هو إلى دراسة الأدب أقرب منه إلى دراسة تاريخه ، فإنه لم يكد ينتهي في كتابه من تصديره ببضعة أبحاث عامة في اللغة على الطراز القديم حتى انتقل إلى المأثور يؤدّب به الطلاب تأديبا جعل دعائمه الأربع ، القصائد المحاميات في الشعر ثم الرسائل فالخطب في النثر ، فشرح عشر قصائد أجرى بعدها عشر موازات ثم ساق من بعدهما عشر رسائل أتبعها بمثلها من الخطب ، دون أن يتقيد في ذلك بعصر معين أو يجري على سنن خاص ، إذ كان يهيمه كما سبق الإمام بطائفة من المأثور تشرح وتدرس كما يتطلب المعنى ويقتضى الاستطراد ، على أنه لا يبعد أن يكون رحمه الله قد سبق إلى ما فعل لا مدفوعا بتلك النظرة بل بما تملكه من حب القديم يجري على سننه ويهتدى بهديه ، وبخاصة إذ وجد طريقه معبدة أمامه ، في حين كان الجديد لا يزال مغلق السبل غير واضح الأعلام ، ولهذا لم تسكد دراسة الأدب وتاريخه تسند إلى المرحوم حسن أفندي توفيق أحد أبناء دار العلوم الذين زاولوا التعليم والتعلم حقبة في ألمانيا مهد الاستشراق عامة وفي العربية خاصة حتى أبرز لنا صورة لتاريخ الأدب هي على صغرها يصح أن تكون بحق النموذج الأول فيه ، ويجب على كل دارس له من بعده مهما أبدع وفصل أن يكون موقفه منه موقف الحريري في مقاماته من البديع حيث يقول على سبيل التمثيل :

فلو قبل مبكها بكيت صباية بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكيت قبلي فنهج لي البكا بكها فقلت الفضل للبتقدم

كيف كان تدوينهما

عرف الأدب بمعناه الاصطلاحي البدائي في صدر الاسلام كما تقدم، ولما جاء العهد الأموي فاقت عناية الخلفاء به كل عناية، وشغلت من نفوسهم المحل الثاني بعد المهام السياسية إن لم يكن الأول معها، ذلك بأنها عون عليها وبأنهم رأوا تثبيت ملكهم في إحياء العصور، فكان في هذا إحياء الأدب القديم مع الجديد وإعادة مذاكرته ومدارسته بعد أن ألهى عنه صدر الاسلام حتى كاد ينسى، وقد توج هذه العناية بالنجاح الباهر والحصول الوافر أن كان الخلفاء أنفسهم من كبار المدلين باللغة والأدب، العارفين لمحاسن الكلام ووقائعه، الراغبين في ألا تخلو مجالسهم من حوار فيه نقاش، فإن هذه الأشياء مجتمعة - ومعنا غيرها - منهم - حملت أرباب الكلام على العناية بالقول والاحتفال بتجويده قبل إهدائه إليهم، كما حملت رواة الأدب على أن يلجوا بالكثير الذي يحسنون عرضه ويحيدون تقليبه، فتولد بذلك ضرب رشيق من الحوار الأدبي تم نضجه واستوى على يد شيخ تلك الحلقة الخليفة النابغة عبد الملك بن مروان حيث هدأت يده عواصف الفتن واستقرت سياسته أمور الدولة، ففاض عهده بهذا اللون من الحوار الأدبي الذي شغل فراغا كان يشغله من قبل، الحوار السياسي في عهد معاوية، واستمر مطردا في عهد أولاد عبد الملك من بعده، وكاهن أديب بارع وبجائة عالم فانتج الآثار الأدبية التي ملأت كتب الأدب وعادت على اللغة بوافر الغلات.

بهذا الصنيع وأمثاله من الخلفاء الأمويين ومن قلدهم فيه من الأمراء والولاة وسائر الناس شعراء وأدباء، انتشرت الرواية وكثر الرواة، كعالم الشعبي خاصة عبد الملك، وحامد الرواية جليس ابنه هشام، ولكن ما روى في العصر الأموي كله بقي غير مقيد في كتاب، حتى إذا ما جاء العصر العباسي

ودخل الاسلام كثير من الأناجم الذين تعلموا لغة العرب وجدت الحاجة إلى التوسع في قواعد النحو والصرف للتحرر من الأخطاء، كما وجدت أيضا إلى الاكثار من الرواية للشواهد والمرانة، ودفع الحرص على هذين الأمرين معا إلى تدوين المأثور، وهنا حجب بعد مواضع العباسيين عن البرارى الى طائفة من فصحاء العرب والأعراب التردد على حواضر العراق، لمد الرواة والمتعلمين بالمأثور، لقاء ما ينالون جزاء ذلك من رزق ومال

فكان من أشهر هؤلاء الأعراب الفصحاء بالبصرة، أبو البيداء الرياحى وأبو مالك بن كركرة، وأبو الجاموس بن يزيد، وأبو عدنان بن عبد الأعلى، وشبيل بن عرعة الضبى، وكان من أشهرهم بالكوفة، أبو خيرة بن زيد، وأبو المحلم الشيباني. ولقد تعدى سبلهم المصرين المذكورين إلى بغداد فكان منهم فيها أبو زياد وأبو ضيغم الكلبيان، وأبو شبيل العقيلي، والفقعس الأسدى، بل تجاوزوا بغداد إلى خراسان كآبى العميل مؤدب الطاهريين في مرو.

لم تعرف لهؤلاء الأعراب المرتحلين، ولا لغيرهم ممن لم يرحلوا عن البادية وإنما كان الرواة يرحلون إليهم، شيئا من الكتب عن أدبهم ولكن الرواة دونوا هذا الأدب في العصر العباسى الاول فكان مرجع الناس من نخبة وأدباء، ومن أشهر هؤلاء الرواة المدونين أبو عمرو بن العلاء الذى أخذ عنه كل علماء عصره وكانت دفاتره إلى السقف فتنسك وأحرقها كما قال صاحب فوات الوفيات، وأبو عبيدة معمر بن المثنى صاحب نقاض جرير والفرزدق، والشعر، والشعراء، والأصمعى عبد الله بن قريب صاحب الأضمعيات ورجز العجاج وعشرة كتب غيرها فى الانسان والحيوان والنبات والجماد، وأبو زيد الأنصارى صاحب النوادر فى اللغة وكتاب المطر واللبن، والقاسم بن سلام صاحب غريب الحديث وغريب المصنف وفضائل القرآن والمواعظ والأمثال وغيرهم

وهناك طائفة من الرواة غلبت عليهم رواية الشعر، وأشهرهم حماد الراوية جامع المعلقات، والضبي صاحب المفضليات، وخلف صاحب كتاب العرب وما قيل فيها من الشعر، والشيباني جامع أشعار القبائل، وكل هؤلاء من رجال الطبقة الأولى في العصر العباسي الأول، وقبل أن ينتهي هذا العصر نشأت به طبقة ثانية كان من دأب رجالها أن يجمعوا بين الروايات ويفاضلون بينها، منهم محمد بن سلام صاحب طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين، وأبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب، وكلاهما صدر كتابه بمقدمة بأسقة الطول تكلم فيها كثيرا عن الشعر واللغة كلاما انتقاديا له في عالم الأدب مكان واعتبار، وقد حادت هذه الطبقة الثانية في كلامها عن الأكثر من اللغة كما حادت الطبقة الأولى عن الأكثر من النحو حيدة جعلت الأدب يتميز منهما ويتحقق له ما تحقق من الشخصية والمكان

٢- ولما جل العصر العباسي الثاني أخذ الأدب يستقل عن النحو واللغة إلما وأخذ يعنى بالمأثور وبالكلام عليه شرحا وتعليقا كما يعنى بالأخبار التي تتعلق بالأدباء أنفسهم، ثم حدث أن جلا الأدباء في أوله عن المصيرين البصرة والكوفة للاحداث التي نزلت بهما من الزنج والقرامطة إلى بغداد التي استبحر فيها العمران وكانت الكتب المترجمة عن الأدب الفارسي وغيره قد أنارت للناس سبل التأليف فتغيرت بذلك كله وجهة الأدب وظهر هذا التغير في أمور.

منها في المأثور، تجاوز الرواية إلى التدبر في المروى بما يحل معناه تحليلا ينتهي بحكمة أو عظة، ومنها في الخبر جمع أشات الأخبار على اختلافها مع ترتيبها أبوابا في كل باب طائفة، ومنها في غير ذلك الميل إلى تدوين الحكم وأخبار الحكماء ومنافع العدل وسير العادلين والحث على الاقتداء بهم، ولعل

الدافع إلى هذا الميل ظهور فساد الحكم في ذاك العصر عصر الخدم الاتراك وتوالى ظلمهم حتى على الخلفاء ، فاصطبغت كتب الأدب بهذه الألوان وغيرها مما توخاه الأدباء في التصنيف ، فالجاحظ وهو إمامهم وفتح الفتح في هذا اللون من التأليف له كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وكتاب البخلاء. وكتاب أخلاق الملوك وكتاب تنبيه الملوك ؛ وكتاب سحر البيان وكتاب طبقات المغنين وكتاب العرافة والزجر عند العرب وكتاب الفراسة عند الفرس ، إلى غير ذلك من الكتب الممتعة التي تجاوزت الثمانين سوى الرسائل الكثيرة المتنوعة في شتى الموضوعات الطاريفة . وابن قتيبة وهو المقفى الجاحظ في هذا الباب له من هذا اللون كتاب عيون الأخبار في عشرة أجزاء وكتاب أدب الكاتب وكتاب الشعر والشعراء وكتاب المعارف وكتاب الإمامة والسياسة في التاريخ العام وكتاب الشراب والأشربة وكتاب التسوية بين العرب والعجم وكتاب تفضيل العرب وهكذا . وقدامة بن جعفر هو ذو الفتح المبين في النقد المنطقي كما يتجلى ذلك في كتابه نقد النثر ونقد الشعر إلى غير هؤلاء من أدباء هذا العصر المؤلفين وإنهم لكثيرون .

٣- ولما حل العصر العباسي الثالث جاء على الأدب وتاريخه خيرا وبركة وظهر ذلك جليا في ناحيتين هامتين من الأدب هما النقد والقصة .

فأما النقد فقد انتشرت روحه وتعددت موضوعاته بعد أن فتحه في العصر الثاني قدامة بكتابه المذكورين ، فكان في أدبائه من انتقد الرواية والأخبار كآبي الفرج في كتابه الأغاني أضخم كتب الأدب وأحفلها بمواده وأجمعها التراجم الشعراء والمغنين ، وكان منهم من انتقد الشعراء كحسن بن بشر الأمدى المتوفى سنة ٣٧١ في كتابه الموازنة بين أبي تمام والبحترى حيث لم يترك لكلمة ما شئنا بما يقوله متعصب له أو عليه إلا أورده في أسلوب جندل متع ونقاش حصيف ، وكالصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ في كتابه مساوى

المتنبى وقد كان شديد التحامل عليه فيه لعدم مدحه إياه حين طلب اليه ذلك على أن يشاطره ماله، وكعبدة العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ في كتابه الرساطة بين المتنبى وخصومه حيث تصدى لدحض ما ذكره الصاحب وغيره من سائر الخصوم، فانتصف للمتنبى انتصافاً مؤيداً بالحجة والبرهان. كما كان فيهم من انتقد الكلام انتقاداً مبيناً على قوانين البلاغة التي وضع بعض قواعدها في العصر الأول وتمت في الثاني وأطرد نموها في الثالث، كأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٣ في كتابه الصناعتين الكتابة والشعر، فقد ملأه نقداً مؤسساً على ضوابط الفصاحة والبلاغة في الأساليب والمعاني، بل كان فيهم من طبق ذلك كله على كتار الكتاب ونوابغ الشعراء، كالثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ في كتابه يتيمة الدهر وفي كثير من كتبه الأخرى المعروف منها نحو الأربعين، كالاعجاز والايجاز، وخاص الخاص، ونثر النظم وحل العقد وشمس الادب في استعمال العرب، والكتابة والتعريض، والنهاية في الكتابة وأجناس التجنيس وسحر البلاغة وغرر البلاغة إلى غير ذلك.

وأما القصة التي أحيها في العصر العباسي الأول ابن المقفع بترجمته كالملة ودمته، ونماها بعده في نفس العصر من اقتفوا أثره في ترجمة هذا الكتاب كعبدة الله بن هلال الأهوازي الذي ترجمه ليحيى بن خالد في خلافة المهدي أو في نظمه كأبان بن عبد الحميد اللاحقي الذي نظم له يحيى هذا أيضاً، ثم زادها تنمية من جاءوا من محبي القصص في العصر العباسي الثاني كالجاحظ في كتابه البخلاء وغيره مثلاً، فقد جاء العصر العباسي الثالث ناهضاً بها مرقياً لها، إذ فيه بدأت ترجمة ألف ليلة وليلة لترجمه الأول المجهول الذي تبعه في الزيادة عليه بالوضع فيه قصاصون آخرون كثيرون، وفيه وضعت القصة الحماسية قصة البراق أنفارس الربيعي المعروف من كتاب الجمهرة لعمر بن شبة

المتوفى سنة ٢٦٢ في حروب ربيعة ، وكذا القصة الغزلية العذرية كقصة جميل العذري مع صاحبه بثينة .

٤ - واما جاء العصر الرابع اطر د رق النقد والقصة .

فأما النقد فكان من أصحه وأمتعه في هذا العصر ، ما وقع من عبدالقاهر الجرجاني في كتابيه الخالدين ، دلائل الإعجاز ، و د أسرار البلاغة ، وكان من طريفه وأمتعه ما جاء للموصلي في كتابه ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، الذى أجاد فيه نقد الألفاظ والمعاني عاتبا على أهل عصره . تسكبهم طريق الأدب الحق ورأسما لهم المبيع الذى ينبغى أن يكون .

وأما القصة فقد جاء منها في كتاب أسرار العرب والعجم لأبى عبد الله محمد بن عبد ربه الجهمشيارى الذى جمع فيه ألف سمر كل سمر قائم بذاته لا يعلق به غيره في أربعائة ليلة وثمانين ليلة ، وقصة عنتر الحماسية التى وضعها للعزير الفاطمى الشيخ يوسف بن اسماعيل وكذا القصة الغزلية الأباحية كقصة عمر بن أبى ربيعة مع عشيقاته الكثيرات .

على أن القصص الغرامية نمت في هذا العصر نمواً كبيراً وتنوعت تنوعاً أكبر ، فقد ألقت أيامه قصص في مغرمات النساء لتقابل القصص الموضوعية لمغرمى الرجال ، بل ألقت قصص للغرام بين الانس والجن كان الحب فيها الرجل أو المرأة من هؤلاء . نارة ومن هؤلاء أخرى .

وقد عالج العرب في هذا العصر نفسه نوعاً من القصص غير ما أسلفنا رموا فيه إلى عرض نظرية علمية أو فمكرة فلسفية هو القصص العلى أو الفلسفى ، فن الأول كتاب الانسان والحيوان لآخوان الصفا من علماء القرن الرابع وهو مناظرات بين الانسان والحيوان تقرر نظريات علمية كثيرة ، ومن الثانى رسالة حى ابن يقطان للفيلسوف محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى سنة ٥٨١ الذى شرح فيه بأسلوب قصصى إنسان الفطرة وأبى الطبيعية ،

وزفق إلى نظريات فلسفية ذات قيمة في تطورات هذا الانسان ، وهذان الكتابان وإن ضما إلى سمو الفكرة جودة العبارة ليسا جديرين أن يحملا اسم القصص ، على أن بعض شخصيات الأدباء الفلاسفة من العرب أمكنهم أن يغلبوا الصبغة القصصية على الصبغتين العلمية والفلسفية في بعض قصصهم كأبي العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩ في قصته الخالدة رسالة الغفران ، تلك التي لمكانتها في عالم القصة نسج على منوالها دانتى شاعر الطليان في قصته الرواية الآلهية ، بعده بثلاثة قرون . وملتن الانجليزى في روايته « الفردوس المفقود » بعده بستة قرون . ولا يفوتنا أن نذكر للعرب لونا آخر من القصة تغلبت فيه الناحية اللغوية الصناعية على النزعة القصصية هو المقامات وكان بطلها في العصر الثالث بديع الزمان المتوفى سنة ٣٩٨ وفي العصر الرابع الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ :

هذا وما تقدم في تدوين الأدب تعرف النواحي التي مست تاريخ الأدب في تلك الصور ، على أنه كما قلنا آنفا لم يستكمل ناحية التاريخ الأدبي إلا في عصرنا الحديث على شيء من النقص البادى في كتاب المواهب الفتحة للشيخ حمزة فتح الله ، وعلى شيء من الكمال المقبول في كتاب تاريخ أدب اللغة العربية للأستاذ حسن توفيق الذى عين الطريق بحق فلسفه من بعده السالكون ، أمثال العلامة جورجى زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية والأستاذان أحمد الاسكندرى ومصطفى عنانى في كتابهما الوسيط ، ومن بعد هذين سار الكثير من المؤلفين كصادق الرافعى وحسن الزيات ومحمد هاشم ومحمود مصطفى وكاتب هذه السطور « السبأنى يومى » .

وأخيرا لا زلنا في تاريخ أدبنا بادئين ، ولا زالت الطريق في تدوينه ذات حاجة إلى تأصيل أصول وتفریع فروع ، تقتضى من العاملين التضامن فى الجهد ، والدأب فى النشاط حتى نصل به القمة بعون الله مسدد خطا السالكين وبه التوفيق .

(يتبع)